

الأسر في رحلة مغربية موريسكية لمجهول من القرن الهجري التاسع

فريدة بنعزوز*

(جامعة عبد المالك السعدي – كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان)

BIBLID [1133-8571] 16 (2009) 9-26

Resumen: “El cautiverio en un viaje marroquí morisco escrito por un autor anónimo del siglo IX de la Hégira”. El presente artículo aborda dos cuestiones diferentes y complementarias entre sí. En primer lugar, analiza el contexto histórico y cultural de un relato de viaje escrito por un autor anónimo en el siglo IX de la Hégira, que partió de Fez para hacer la peregrinación y, capturado por los cristianos, fue llevado a algunas islas del Mediterráneo, para luego ser liberado por un grupo de mudéjares de Cataluña, que pagaron su rescate con la intención de que les ofreciera soporte en sus prácticas y hábitos religiosos. Por otro lado, se analiza la problemática de la producción y tipología del texto, estudiando las diversas transformaciones y perspectivas en las que se encuadra. Se trata de un texto que se sitúa en el género de viajes, producido por un autor anónimo marroquí en forma de epístola dirigida a su gente en Fez, su ciudad natal. Sin embargo, en tanto que el texto fue adoptado, rehecho y difundido por la comunidad morisca, se transforma en un texto propio de los mudéjares, y finalmente en un ejemplo de la literatura morisca.

Palabras clave: Literatura de viajes; Literatura árabe; Moriscos; Mudéjares; Cautiverio; Esclavitud.

Abstract: “Captivity in a Moroccan Morisco travel written by an anonymous author in the IXth century after the Hegira”. This article approaches two different and complementary subjects. The first one is the analysis of the historical and cultural context of a travel story authored by an anonymous writer in the IXth century after the Hegira. The traveller departed from Fes in order to accomplish the pilgrimage. But he was captured by a group of Christians who took him to some Mediterranean islands. After that he was rescued by a group of Catalanian Mudejars, who paid for his liberty to have a guide in their religious ceremonies and practises. On the other hand, the article seeks to

* E-mail: fbenazouze@gmail.com

explore the question of the production and typology of the text, studying its evolution and perspectives. It is a text that can be placed within the genre of travels, written by an anonymous Moroccan in the form of a letter addressed to his relatives in Fes, his native town. However, as the text was adopted, reformulated and transmitted by the Morisco community, it became a Mudejar text and lastly a sample for Morisco literature.

Key words: Travel literature; Arabic literature; Moriscos; Mudejars; Captivity; Slavery.

ملخص البحث: تحاول هذه المقالة معالجة مسألتين مختلفتين ومتكاملتين في نفس الوقت بالنظر إلى موضوعها. يتعلق الأمر، من جهة، بالوقوف على مختلف السياقات التاريخية والثقافية ودراستها لنص رحلي مجهول من القرن التاسع الهجري، خرج من فاس لأداء مناسك الحج الإسلامي، ليجد نفسه أسيراً، لدى النصارى، ببعض جزر البحر الأبيض المتوسط، ثم طليقا بين المدجنين بأنكوبة بقطلوونية، الذين اقتدوه، ليعمل على تزويدهم بما يسهم في تدبير شؤونهم الدينية.

كما يتعلق كذلك بالنظر في إشكال إنتاج هذا النص ونوعه، وكذا مختلف أشكال التحولات التي أحضعت إليها باختلاف آفاق انتظاره وتعددتها. فهو نص يندرج، بامتياز، ضمن أدب الرحلة، أعده مغربي مجهول من فاس في شكل رسالة بعث بها إلى أهله في هذه المدينة المغربية. غير أنه ما لبث أن تحول بسرعة إلى نص للمدجنين، ثم إلى نص من نصوص الآداب الموريسكية، عندما أخذ الموريسكيون في إعادة إنتاجه وتداوله بينهم بلغتهم العربية والإسبانية.

كلمات مفتاح: أدب الرحلة، الأدب العربي، الموريسكيون، المدجنون، الأسر، الاسترقاق.

لم يحظ الأسر، من حيث كونه موضوعاً أدبياً بعناية مؤرخي الآداب العربية والإسلامية ودارسيها. ولم يفرد البحاثة والمؤرخون العرب والمسلمون لأسر أبناء جلدتهم واسترقاقهم في أوروبا أبحاثاً ولا دراسات مخصصة⁽¹⁾. ويعود الفضل، فيما نتوافر عليه في هذا المضمار، إلى ما بذله بعض المؤرخين الغربيين

(1) ولا يعني هذا أن المكتبة العربية والإسلامية تخلو من النتاج الكتابي في الأسر بوصفه وقائع تاريخية وثقافية. فالواقع أن بعض الدراسات من هذه المكتبة قد تطرقت إلى الأسر من حيث هو كذلك، أو قد عرجت عليه. وللإطلاع على معظمها، مما عرف إلى حد الآن، يراجع: فان كونينكسفلد. بيتر شور، "الأسرى المسلمون في أوروبا الغربية خلال القرون الوسطى المتأخرة"، نص الدرس الافتتاحي لتقلد منصب أستاذ كرسي التاريخ الديني للإسلام في غرب أوروبا، مجلة دفاتر الشمال، ع. 5، شتاء 2002، 19-32.

والمستشرقين من جهد للتأريخ لهذا الأسر بوصفه وقائع تاريخية وثقافية. ويحتل من بينهم المؤرخ البلجيكي "فيرلندن" مرتبة الريادة بما أنتجه من أبحاث ودراسات متميزة. فلقد تناول أسر النصارى للمسلمين ضمن معالجته لتاريخ العبودية العام في أوروبا الغربية⁽²⁾. كما يتبوأ المستشرق الهولندي المذكور أعلاه، "فان

وبالنظر إلى كوننا سنعالج في هذه المقالة أسر مغربي بإسبانيا، فلقد ارتأينا التنويه في هذا الصدد، وبالإضافة إلى مقالة برنارد لوياس، ببعض عناوين المكتبة المغربية الحديثة التي تطرقت إلى فك أسر المسلمين. يتعلق الأمر بتدوين محمد بن عبد الوهاب الغساني وأحمد بن المهدي الغزال ومحمد ابن عثمان المكناسي لسفاراتهم إلى هذه المملكة من أجل تدبير هذه المهمة.

الغساني. محمد بن عبد الوهاب، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، مخ. الخزنة الحسنية، 11329 ز. أنظر أيضا تحقيق وتقديم، عبد الرحيم بنحادة، سفير مغربي في مدريد في نهاية القرن السابع عشر. رحلة الوزير في افتكاك الأسير لمحمد بن عبد الوهاب الغساني، منشورات معهد الأبحاث في لغات وثقافات آسيا وإفريقيا. طوكيو 2005.

الغزال. أحمد بن المهدي، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، تح. إسماعيل العربي، لبنان، 1980.

المكناسي. محمد ابن عثمان، الإكسير في فكاك الأسير، تح. محمد الفاسي، الرباط، 1965.

وللمكناسي رحلة أخرى في نفس الغرض إلى نابولي وإلى جزيرة مالطة، التي لعبت دورا أساسيا في أسر المسلمين والاتجار بهم في سوق النخاسة الدولية.

المكناسي، محمد ابن عثمان، البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر، تح. مليكة الزاهدي، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، 2004.

لقد أصبح المكناسي بهذه الرحلات "جزءا من ديبلوماسية الأسير"، بوصفها سمة من سمات "العلاقات المغربية الإسبانية" على عهد السلطان المغربي مولاي محمد بن عبد الله، على حد رأي سعيد بنسعيد العلوي في هذا الملك وسفيره.

العلوي، سعيد بنسعيد، أوروبا في مرآة الرحلة. صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1995، 23-33.

Loupis. Bernard, "Destin et témoignage d'un esclave en Espagne", *Hesperis-Tamuda*, XVII, 1976-77, 69-85.

Verlinden. Charles, *L'esclavage dans l'Europe Médiéval. I. (Péninsule Ibérique, France)*, Bruges, 1955. (2)

Verlinden. Charles, *L'esclavage dans l'Europe Médiéval. II. (Italie, Colonies Italiennes du Levant, Levant Latin, Empire Byzantin)*, Bruges, Gent, 1977.

Verlinden. Charles, "Esclave noir en France méridionale et courants de traite en Afrique", *Annales du Midi*, 78, 1966, 335-43.

كونينكسفلد، "مرتبة الريادة كذلك في افتتاح البحث في موضوع التاريخ الثقافي العام للأسرى والمملوكين المسلمين في أوروبا، بالاعتماد على المصادر الإسلامية والأوروبية الغربية، ومن منظوريهما⁽³⁾.
ومن المعروف أن الأسر قد شكلت ظاهرة من أهم ظواهر الصراع والتنافس بين الإسلام والنصرانية في العصر الوسيط ومطلع الحديث من تاريخ البحر الأبيض المتوسط. ولعله من المعروف كذلك، أن المبتلين بهذه الظاهرة من أهل هاتين الملتين⁽⁴⁾، قد وضعوا فيها آداباً متعددة للتعبير عنها، ولمواكبة مختلف الإشكالات

Verlinden. Charles, "Les esclaves musulmans du Midi de la France", *Islam et chrétiens du Midi, (XII-XV's)*, Toulouse, 215-43.

وبالإضافة إلى هذه المراجع التي أضحت اليوم كلاسيكية في موضوع هذا النوع من الأسر، يمكن الرجوع إلى طائفة من الأعمال التي تناولته أو عرجت عليه أو أشارت إليه. ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر العناوين التالية التي اقترحتها علينا، مشكورة، هيئة تحكيم هذه المجلة، والتي لم تتمكن بعد من الرجوع إليها.

DAVIS, Robert C., *Christian Slaves, Muslim Masters. White Slavery in the Mediterranean, the Barbary Coast, and Italy, 1500-1800*, Houndmills, 2003.

FERRER MALLOL, M. T. - MUTGÉ VIVES, J. (eds.), *De l'esclavitud a la llibertat: esclaus i lliberts a l'Edat Mitjana (Col.loqui Internacional, Barcelona, 1999)*, (Barcelona, 2000).

FRANCO SILVA, A., *Regesto documental sobre la esclavitud sevillana: (1453-1513)*. Sevilla, 1979.

La esclavitud en Andalucía: 1450-1550, Granada, 1992/Madrid, 1985.

LOBO CABRERA, M., *La esclavitud en las Canarias Orientales en el siglo XVI (negros, moros y moriscos)*. Santa Cruz de Tenerife, 1982.

(3) فان كونينكسفلد، س. ذ. ونشير إلى أن هذا البحث قد جعل من أهدافه الأساسية، إبراز الأدوار التي لعبها الأسرى المسلمون من العلماء والفنانين وكبار الحرفيين في الحياة العلمية والفنية والمهنية والثقافية العامة بأوروبا الغربية.

(4) لقد كان يطال الابتلاء بالأسر، بالدرجة الأولى، الأسرى الذين كانوا يرحلون بصفة فعلية ومباشرة تحت وطأة أغلاله وقيوده المادية والمعنوية. غير أنه كان يطال كذلك في الانتماء الديني الإسلامي أو النصراني للأسير، جميع أهل الإسلام وجميع ملة النصرانية على السواء. لذلك فمسؤولية فدية الأسرى وتحريرهم كانت ترجع في غالب الأحيان إلى كل من الأمتين المذكورتين، ومن يمثلهما في ذلك الوقت من خلفائها وأمرائها وملوكها وأولياؤها وصلحائها وقساوستها وربهاؤها إلخ. ولقد أنتجت كل منهما وسائل وطرقاً ومؤسسات متعددة ومختلفة لتنظيم هذا الأمر وتديير شؤونه. وللإطلاع على مختلفها وعلى كيفية اشتغالها، يراجع:

الونشريسي. "المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب"، ط. محمد حجي وآخرين، الرباط، 1981-1983، المجلد الثاني، 161 وما بعدها. 211-213.

الإنسانية والدينية والسياسية والاقتصادية التي كانت تترتب عنها⁽⁵⁾. ولقد اشترك كل من واضعي هذه الآداب وقرائنها من أهل الديانتين المذكورتين، في إنتاجها واستهلاكها على مر الأزمنة والعصور⁽⁶⁾.

ابن صاحب الصلاة، "المن بالإمامة، تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين"، تحقيق التازي. عبد الهادي، بيروت، 1987، 178 وما بعدها.

فان كونيكسفلد، س.ذ، 20، 30.

ذاكر، عبد النبي، "الواقعي والمتخيل في الرحلة الأوروبية إلى المغرب، الدار البيضاء"، 1997، 147-158.

Bunes de Ibarra. Miguel Ángel, *La imagen de los musulmanes y del Norte de África en la España de los siglos XVI y XVII. Los caracteres de una hostilidad*, C.S.I.C, Madrid, 1989, 145-184.

(5) ونقصد بذلك الآداب بمفهومها الرحب والواسع؛ أي ما يشمل بالإضافة إلى الفنون التخيلية، جميع ما أنتج في هذا المضمار من نتاجات دينية وفقهية وقانونية وسياسية إلخ، لتدبير مختلف الإشكالات المذكورة. ويمكن أن تمثل على ذلك بمسألة النظر الفقهي في جواز طلب الزوجة التطلق من زوجها الأسير في مكان غير معروف من بلاد الروم، أو ما هو في مثلها من المسائل التي يطرحها الأسر في الحياة العامة للأسير ومحيطه الاجتماعي والثقافي، التي كانت تتطلب من المسلمين ومن النصارى رفع عنف تحديها، وإعداد الحلول الشرعية والإنسانية الملائمة لها. يراجع بالنسبة للمسلمين، وبالإضافة إلى المصادر والمراجع المذكورة أعلاه:

المالقي. الشعبي عبد الرحمن بن قاسم، "الأحكام"، تحقيق الحلوي صدوق، دار الغرب الإسلامي، 1992، 402. 452. وبالنسبة للنصارى، فإني لم أتوقف بعد في الوقوف على مصدر من مصادرهم في مستوى المصدر الإسلامي المذكور في هذا التعليق. غير أنه من المعلوم أن اهتمامهم قد انصب في هذا المضمار على مواجهة تحدي وقائع تحول أسراهم في البلاد الإسلامية عن نصرانيتهم إلى الإسلام. لذلك عنوا كثيرا بهذه المسألة، حيث تفتانوا في إرسال القساوسة والرهبان لأسراهم بقصد تثبيت أهل ملتهم على دينهم، في انتظار تحريرهم. مثلما لم يقصروا في بناء معابدهم وكنائسهم بهذه البلاد لتدبير هذا الأمر. يراجع:

Bunes de Ibarra. Miguel Ángel, *op.cit.*, 151. 155. 159-165.

García Figueras. Tomás, "La apostasía entre los cautivos cristianos en Marruecos", *Miscelánea de Estudios Históricos sobre Marruecos*, 233-240.

(6) والمقصود بذلك مساهمة قراء هذه الآداب، من حيث كونهم أفق انتظارها، في إنتاج موضوعاتها ومضامينها وأساليبها إلخ. وتنسحب هذه الملاحظة، بصفة خاصة، على آداب الأسر الأوروبية النصرانية التي لعب قرؤها أدوارا حاسمة في تنميطها، مثلما لعبت هي كذلك دورا أشد قوة في تنميط تصوراتهم ولغيرهم المعنيين بالأسر؛ أي لكل من

والواقع أننا نلاحظ في هذا المضممار تفاوتاً كبيراً فيما توافر اليوم من هذه الآداب، المشوثة بين تراث المسلمين، ونظيره مما خلفه النصارى. ولا يرجع هذا الأمر إلى قلة عناية الباحثين بأول هذين التراثين فقط⁽⁷⁾، بل يؤول كذلك إلى أن الأسرى والمهتمين بالأسرى من النصارى قد عملوا جميعاً على توسيع مجالات إنتاج تراثهم المخصوص في هذا المضممار؛ لتطال بذلك مختلف ميادين الإبداعات الفنية⁽⁸⁾.

النصرانية والنصارى، وللإسلام والمسلمين. ويتضح كل هذا في المعلومات والمعطيات، والإيجاعات والإيهامات، التي تترخر بها مثلاً مختلف نصوص هذه الآداب التي رجع إليها عبد النبي ذاك وبونيس إيبارة.

ولضبط إشكالات التلقي والتنميط التي تطرحها النتاجات الأدبية من حيث هي كذلك، يراجع:

Jauss Hans, Robert, *Pour une esthétique de la réception*, trad. Claude Maillard, Paris, 1987.

سعيد إدوارد، "الاستشراق. المعرفة السلطة الإنشاء"، تر. كمال أبو ديب، ط. 2، بيروت، 1978.

سعيد إدوارد، "الثقافة والإمبريالية"، تر. كمال أبو ديب، 1998.

(7) لا نستبعد من جهتنا توافر كم مهم من هذا التراث في هذا الصدد. غير أنه لم يعرف بعد طريقه إلى التحقيق والدرس والاستثمار في الأبحاث والدراسات التاريخية والأدبية وغيرها. ولقد استمر بيتر كونيكسفلد طائفة من مخطوطات هذا التراث من مثل مخطوطة "سبك المقال في فك العقال" لابن الطواح، ومخطوطة "مفتاح الدين والمجادلة" لـ محمد القيسي التي سنستخدمها بدورنا، ومخطوطة "رسالة السائل والمجيب" لـ محمد الأندلسي. فضلاً عن تعريجه على الأدب الشعبي في هذا المضممار المتمثل في لجوء العاجزين من المغاربة عن فدية أسراهم من بلاد الروم، إلى شفاة أضرحة الأولياء والصالحين وكراماتهم.

(8) مثل المذكرات والحكايات ومختلف النصوص السردية الأخرى. ومثل التشكيلات المختلفة من رسوم ولوحات وتصاوير إلخ. ولقد أرخى واضعو مختلف هذه الإبداعات الفنية العنان لخيالهم؛ ليسلكوا بأفلامهم وريشاتهم سبل إشراك المستهلك لنتاجهم في استراتيجية إنتاج تصوراتهم للأسرى وأسريهم، والإقناع بذلك والدفاع عنه. ولم يرق الأسرى وحدهم تلك بتأليف تلك النصوص وهذه الرسوم واللوحات؛ فأغلبها يرجع إلى بعض الرحالة والسفراء والمغامرين. كما يؤول كذلك، وبصفة خاصة، إلى الذين كانوا يتولون مهام تدبير فداء الأسرى وتحريرهم، الذين كانوا في الغالب من القساوسة والرهبان، ورجال الطوائف والأنظمة النصرانية. ولا غرو في ذلك، فلقد كانت النصرانية ترى بأنه بقدر ما يطول مقام الأسير بين المسلمين، بقدر ما يجنح إلى الانقلاب عن دينه، والدخول في الإسلام، وعداء النصرانية ومخاربتها.

ولقد ساق بونيس دي إيبارة نماذج كثيرة من سرديات دالة على كل هذه القضايا. كما أورد عبد النبي ذاك، بالإضافة إلى النصوص، مجموعة من اللوحات والرسوم الدالة من جهتها كذلك على نفس هذا الأمر.

Bunes de Ibarra. M. A, *op.cit.*, 145-184. 185-199.

AAM, 16 (2009) 9-26

كما عمل النصارى، بصفة مبكرة، على طبع قطع من هذا التراث، وعلى توزيعه بين جمهوره؛ لتنميط أدواقه وحساسياته الفنية، ولتكريس أغراضه ورغباته الحضارية الخاصة به في هذا الصدد. وبالإضافة إلى كل ذلك، فلقد بذلوا عناية خاصة في ترتيب مختلف قطع هذا التراث، والحفاظ عليها في المكتبات والمتاحف⁽⁹⁾. ولا يعني ذلك أن المسلمين قد اقتصروا على التعبير عن ظاهرة الأسر، ومواكبتها بالكتابات التاريخية والفقهية، أو بما هو في حكمها. فالواقع أنهم قد أبدعوا بدورهم نصوصا حققت أدبيتها بامتياز في عصرها⁽¹⁰⁾. فهل استطاعت هذه النصوص تشكيل أدب للأسر، بالمعنى الخاص للأدب في تراث الغرب

ذاكر. عبد النبي، س.ذ، 147-158.

- (9) ولا أدل على ذلك من يسر وصول الباحثين إليها، وتمكنهم من استخدامها واستثمارها في أبحاثهم ودراساتهم.
- (10) يراجع التعليق رقم: 7. وبالإضافة إلى ما يجيل عليه، نسوق بدورنا هذا النص الذي يعبر عن أدبية شراسة الأسر وقسوته على محمد القيسي، الذي كان يضطر في أسره "بكتلونية" (إقليم من الشمال الشرقي لإسبانيا) إلى مجادلة القسيسين والرهبان لأنهم كانوا يتخذون منه نموذجاً للتدرب على الجدال الديني في مطلع القرن الميلادي الرابع عشر.
- "فحاسبت نفسي أشد حساب، وطالبتها بالبلاغة أشد الطلب، وقلت نكتب بهذا كتاب ليتذكر أولو الألباب. فلم نجد في حومتنا من ينقله عنا ليعد ديارنا، وانقطاعنا عن أهل ملتنا. لا طالب يطلب ولا كاتب يكتب، مع أن الكلام لا يثبت في الهواء، ولا يقف في الخوا. [...] ولعمري كأني لو استطعت لجعلت القلم من بناتي والمداد من أحفاني مرضاة إخواني. ونجعل الرق من جلدي، بل من سحق خدي. ولو علمت أن أحدا من المسلمين يكتب [؟] ويطلب ما جرى على خاطري، ولا نطق به لساني، لأن لساني أعجمي، قد خانني جناني، وكثرت أحراني، وأسلمني خاطري [...] وحقا لمن أسرته الروم وكابد المشقة والهموم، أن يكلم لسانه، ويضعف بيانه ويذهب تبيانته وتسلمه نفسه، ويكون خير يومه أمسه [...] وغصبي ثوب الإحسان واستبدلني به لباس الحرمان، ورماني بين حزب الشيطان في دار الكفر والطغيان؛ أخدم النصارى العصيان، والقسيسين والرهبان في المجادلة والهوان، حتى سلبي عقلي، وصبرني لا أملك قياد قولي. وما أنا إلا أحسب أني أنظر إلى قبري قبل انقضاء عهدي".
- القيسي. محمد، مفتاح الدين والمجادلة بين النصارى والمسلمين من قول الأنبياء والمرسلين والعلماء الراشدين، مخطوطة المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم: 1557، 80-81.
- ولقد نظم نفس الأديب قصيدة في انتصار المسلمين على النصارى في إحدى معاركهم بالجزيرة الخضراء، من بعدما بلغته أخبار ذلك في أسره بكتلونية. 74-79.

الإسلامي؟ وهل استطاعت تنميط متلقيها داخل اختيارات ذوقية وفنية مخصوصة، تحدد بدورها تبعاً لذلك، تأسيس ذات الأدب وتطوره واستراتيجيته الثقافية والحضارية كما هو الشأن بالنسبة إلى نظيرتها النصرانية في التراث النصراني؟ والحق أننا لا نملك، ولربما بالنظر إلى قلة زادنا - لحد الآن - في هذا الموضوع، فرضيات لمعالجة مثل هذه التساؤلات. وكل ما نستطيع الإدلاء به في هذا المضمار، لا يتعدى بادئ الرأي الذي انطبع في الذهن عبر المقارنة الأولية بين ما وقفنا عليه في التراثين المذكورين. فلقد اهتم المسلمون مثل نظرائهم النصراني في كتابتهم عن الأسر بمختلف إشكالاته الواقعية. غير أنهم قد اقتصدوا، وخلافاً لهؤلاء، في تشغيل الخيال عند تناولها⁽¹¹⁾. كما أنهم لم يلتفتوا كذلك، لأسباب دينية معروفة، إلى أساليب فنية أخرى للتعبير عن نفس الظاهرة، من مثل التشكيل والتصوير اللذين أبدع فيهما النصراني إبداعاً مرموقاً⁽¹²⁾. ينضاف إلى

وقد خصص فان كونيكسفيلد وحرار فيخرز هذا الكتاب بدراسة وافية؛ عرفت به وعالجته محتوياته ومضامينه، متبعية السياق الثقافي والتاريخي لإنتاجه، وما لعبه من أدوار أساسية وحاسمة في تطور النجاج الجدالي للموريسكيين ضد النصراني بإسبانيا.

كما قام محمد عبد الواحد العسري بدراسته بوصفه قطعة من المجادلة الدينية بين النصرانية والإسلام في الأندلس.
Koningsveld, P.S. Van. & Wiegiers, G.A, "The polemical works of Muhammad al-Qaysi (fl.1309) and their circulation in Arabic and Aljamiado among the Mudejars in the fourteenth century", *Al-Qantara*, XV, Fasc .1, 1994, 165-199.

العسري. محمد عبد الواحد، "قواعد المناظرة وأخلاقياتها من خلال مجادلة محمد القيسي ومحمد الأنصاري للنصارى بالأندلس"، مج. التاريخ العربي، ع. 15، 331-349.

(11) لا تنسحب هذه الملاحظة على الأسرى المسلمين، بقدر ما تنسحب على المسلمين الذين كتبوا عن الأسر. فالظاهر أن المعني بنتائجهم الكتابي لم يكن لينتظر منهم أدبا عن الأسر بمفهومه الخاص، بل تقارير عن أسر المسلمين في البلاد النصرانية. ويمكن التمثيل على ذلك، وعلى سبيل التجوز، بكتابي المكتاسي المذكورين، مع التنبيه على أنهما لا يقعان في المرحلة التاريخية المعنية بمهذه الملاحظة.

(12) تتخلل الرسوم والتصويرات أغلب الكتابات النصرانية عن الأسر، وتتصدر غلافات الكتب التي تتضمنها. بما في ذلك الكتب التي تطبع إلى حد الآن. ولقد أورد عبد النبي ذاكر في كتابه المذكور نماذج متعددة منها. س. ذ، 155. 160. 162-171. 164.

وللتمثيل من جهتنا على ذلك، يراجع غلاف طبعة مذكرات جرمان مويط عن سنوات أسره الإحدى عشرة بفاس ومكناس والقصر الكبير فيما بين 1670 و1681.

Mouette, Germain, *Relation de captivité dans les royaumes de Fez et de Maroc*, éd établie, annotée et préfacée par Xavier Girard, Mercure de France, 2002.

ذلك، افتقارهم لمدة طويلة من الزمن إلى المطبعة، وبالتالي، إلى الانتشار الواسع لأدب الأسر بينهم؛ مما أسهم في تأخر تشكل متلقيه وتمييزهم⁽¹³⁾. والغالب على الظن كذلك، أنهم لم يبالغوا في الاحتفاء بافتكك الأسير، ولا في مسرحة معاناته وإعادة إنتاجها بين الناس بالشكل الذي توصل به النصارى في هذا المضمار⁽¹⁴⁾.

وبين يدي نص من مطلع القرن الهجري التاسع، جعل من الأسر بؤرة موضوعه الأدبي والثقافي، نشره "ميكيل دي إبالثا"، إلى جانب نص آخر من القرن الثامن، بالعنوان التالي: "رحلتان إلى المشرق في نصين موريسكيين بالعربية والقشتالية"⁽¹⁵⁾. يتعلق الأمر بنص سردي لرحلة مجهضة إلى الحج. رحلة مجهول خرج من جهة مدينة فاس المغربية لأداء هذه الفريضة الإسلامية. وفي طريقه من تونس إلى مصر أخذه القراصنة النصارى أسيرا إلى مدينة "مثلين" بجزيرة "هجينه" ببحر إيجه⁽¹⁶⁾. ولقد حجبه نصراني عن عملية

(13) من المعروف أنه قد تأخر ظهور أول مطبعة بالعالم الإسلامي بإسطنبول في سنة 1762 حوالي ثلاثة قرون بعد ظهورها في الغرب النصارى؛ حيث طبع غنتيرغ الكتاب المقدس حوالي سنة 1456.

التاريخ الاجتماعي للوسائط. من غنتيرغ إلى الإنترنت، أسا بيرغرز و بيتر بورك، تر. مصطفى محمد قاسم، عالم المعرفة، الكويت، 2005، 425، 427.

(14) لقد أبدع النصارى طقوسا للاحتفاء بتحريرهم لأسراهم والعودة بهم إلى بلادهم. ويتميز من بينها طقس تطويف الأسرى بين مختلف مدتهم وأشهر كنائسهم. فلم يكن يسمح لهم بالإسراع إلى منازلهم وذويهم، إلى أن يسيروا في مواكب عديدة؛ حتى يشاهدتهم الناس وهم بمسرحون أمامهم حالتهم بالأسر، أو بالأحرى الحالة التي كان يريد القساوسة والرهبان والمحررون، أن يراهم الناس عليها. ولربما ذاق بعض الأسرى في هذا الطواف ما لم يذقه في أسره من عذاب ثقل الأغلال والقيود الملفوفة حول الرقاب والأيدي والأرجل، إلى الحد الذي كانت تصبح فيه محل تبرم بعضهم. ولقد ساق عبد النبي ذاكر عدة نماذج مصورة لهذه الجولات، التي تدل بذاقها على الهدف المتوخى من تنظيمها، وعن القصد المرجو من تكرارها بين تلك المدن والكنائس العديدة. س.ذ. الصور : 13-14-15-16.

ومما لا شك فيه أن المسلمين قد احتفوا بدورهم بتحرير أسراهم. غير أننا، وإذ لا نعرف لحد الآن مختلف الأشكال التي كان يتم بها هذا الاحتفاء، فمما لا شك فيه، أنه لم يتم أبدا بمثل هذه الطريقة.

(15) Epalza. Mikel. De, "Dos Textos Moriscos Bilingües (árabe y castellano) de Viajes a Oriente (1395 y 1407-1412)", *Hesperis-Tamuda*, vol. XXI, 1982-83, 25-112.

(16) Hugina – Mithilene نفسه، 58. من النص العربي 94. من الترجمة الإسبانية. نجيل صاعدا هكذا 58 / 94.

افتكك تركية شملت من دونه بقية زملائه في الأسر من الحجاج والتجار، لبيعه بعد ذلك إلى نخاس من أهل ملته⁽¹⁷⁾. وبذلك اقترب منه موعد السقوط في العبودية، بحسب القواعد والأعراف الجاري بها العمل آنذاك في مثل هذه الحالات⁽¹⁸⁾. ولقد حاول الهرب في البحر من دون جدوى، ليتحمل بعد ذلك العذاب المخصص عادة في هذه الحالة للطامعين في الهرب من الأسرى⁽¹⁹⁾. وبعد كتابته من "ميورقة" إلى أخيه بفاس، وتراسله مع مدجني "طرقونة" و"ليردة" في شأن فديته⁽²⁰⁾. وفيما بين الرجاء واليأس، ومن بعد

(17) يذكر رحالتنا أن إخوانه المسلمين في الأسر من التجار والحجاج، قد راسلوا مع التجار الأتراك سلطان "ابن عثمان" في شأن تحريرهم من يد "سلطان النصارى". ولقد تمت الاستجابة إلى استغاثتهم، ففك أسرهم من دونه، لأن نصرانيا كان قد أخذه قبل ذلك إلى بيته.

"وأن سلطناهم ابن عثمان == قلنا فنكتب له يا إخوان
 كتبنا بعثناها مع التجار == وصلت إلى أمير الافتخار
 بعث رسالا إلى سلطان == مثلين إذ قالوا له يا فان
 أن الأمير يطلب الأسارى == كلهم الضعفاء والتجار [...]
 فخاف سلطان النصارى ذا المقال == وأراد أن يبعثنا بلا محال
 فعند ذلك أخذني نصراني == من المدينة وقد عباي
 لداره فبعد أيام حملت == إلى البحر بالليل وأني قد طلعت
 في قارب سافر يا مضافر == فبعد ذلك اشتراي تاجر"
 نفسه، 59 / 98.

(18) وذلك بحسب وجهة النظر القانونية الأوروبية. ويذكر فان كونينكسفلد أنه كثيرا ما كان يتصرف النصارى في الأسرى المسلمين بهذه الطريقة. ف"الأغلبية العظمى من الأسرى كان يتم توزيعها خفية بأسرع ما يمكن حول أسواق العبيد، ومن ثم يتم التوزيع على الصعيد الدولي"، وذلك قبل "وضعهم تحت تصرف الملوك المسيحيين"، س.ذ، 20.

(19) "إلي قد ربط لي يدي == إلى ركيزة كذا رجلي
 فإذا النصارى اجتمعوا علي == لينفروا وينظروا إلى
 كشف لي ظهري وإذ ضربني == ضربا شديدا أنه أوجعني"، 60\98.

(20) لقد لعبت جزيرة Mallorca دورا أساسيا في التجارة العالمية بالعبيد، وذلك بالنظر إلى موقعها الاستراتيجي بغرب البحر الأبيض المتوسط، وإلى تحصينها الطبيعي الذي يوفر للنخاسين كلفة الاحتفاظ بالأسرى والمملوكين وحراستهم في انتظار

انصرام أربع سنوات من ذل الأسر والعبودية، افتداه المدجنون ونقلوه إلى "أتكونة"، ليعوض بينهم بعلمه فقيهمم الراغب في الرحيل عنهم إلى بلاد المسلمين⁽²¹⁾. وبذلك استعاد أسيرنا الرحالة حرته، ليرعى بزاده

تسويقهم في هذه التجارة. وإلى هذا التحصين يشير رحالتنا بقوله: "جئنا إلى ميورقة الحصينة == حين وصولنا إلى المدينة"

ويذكر رحالتنا الأسير أنه قد أرسل إلى أخيه بفاص رسالة مع تجار يهود، يطلب منه فيها تأدية مائتين من ذهب المغرب إلى وكيل مولاه بمجده المدينة، في نفس الوقت الذي ترأس فيه مع المدجنين المذكورين يعرفهم بنفسه، ويحفظه القرآن الكريم، وإتقانه علوم الشريعة الإسلامية واللغة العربية. لقد أراد بمجده الرسائل استعادة حقه الطبيعي في حرته، قبل نفاذ صبر مولاه النصراني؛ الذي كان يهدده بشد طوق العبودية حول رقبته، وخاصة من بعدما علم بإمكانياته المذكورة.

- "ليل جاء ضيفنا فرنسيس == لدرىكو وهو الشهير خصوص [...]
- فقال لي من أي موضع أنت == قلت له من حوز فاس وأخذت
- في البحر ثم قال ما صنعتك == قلت له القراءة فبعد ذلك
- كلمني لقال ما حدثك == هل لك من ينديك أو نبيك
- قلت له فلي أخ ما أدري == كيف يكون ماله في خبري
- لاكن بفضلك لا تبني == وإن رفقت لعله يخرجني
- فقال لي واكتب له بأسرك == وأخبره بالأمر الذي جرى لك
- وقل له أن شريكى بفاص == فعند ذلك أخذت القرطاس [...]
- فخفت منه عند ذا وكتبت == بمائتين لكم وبعد كنت
- أرسلت في ذبائح اليهود == مع النصارى لكثير الجود
- الأجد القاضي الشهير الأعظم == العدل الفضل الركي العلم
- أني أحفظ كتاب الله == أتلوه من صدري بعون الله [...]
- وأحفظ الرسالة السنينة == لابن أبي زيد والأجرومية"، 60-61\99-102.
- "فقد الله وإذ مرضت == حتى بلغت الموت إذ ضعفت
- ضعفا كبيرا فإذا فقيهه == الأفضل المدجن النبيه
- أتى إلى ميورقة بأهله == برسم أرض المسلمين بفضلله
- جاء إلى ضيفي مرارا حاوره == في خبر القدية فاسطاد له
- قاطعه بمائتين وخمسين == فلرنا كتب إلى المدجنين"، 62\104.

(21)

العلمي المذكور المدجنين ضمن تشبثهم بهويتهم الإسلامية والعربية داخل المناطق النصرانية بالشمال الغربي لشبه جزيرة إيبريا⁽²²⁾.

وقبل أن نتطرق إلى ما يتعلق ببؤرة محور هذه المقالة من أسر صاحب رحلتنا، لنعرج على بعض المشكلات التي يطرحها نصها؛ من مثل مشكلة نوعه، ومشكلة نسبته إلى الأدب المغربي والأدب الموريسكي في نفس الوقت. أما عن مختلف القضايا الفيلولوجية المرافقة التي تطرح عادة في دراسة مثل هذا النص؛ من مثل قضية نسبته إلى صاحبه وإلى زمن وضعه. فضلا عن عملية ترجمته إلى قشتالية القرن السابع عشر، واستنساخه وحفظه إلخ. فالواقع أن ميكيل دي إبالثا ما قصر في شيء من ذلك عند تحريجه لهذا النص، وتقديمه له.

هل يندرج نصنا ضمن ما تواضع النقد الأدبي على تسميته بأدب الرحلة، أو بأدبية الرحلة على حد تعبير عبد الرحيم مودن⁽²³⁾. الحق أن نصنا يحقق أهم عنصر المعيار التصنيفي الذي يسمح بإدراجه ضمن المتن الرحلي. "فإن كانت تتوازي فيه أنواع من الكتابة الأدبية وغير الأدبية، وتتقاطع فيه كذلك أنماط من الخطابات السردية، فإن هيمنة بنية السفر عليه، وقدرتها فيه على توليف تلك الأنواع وهذه الأنماط ضمن

(22)	وبفضلهم قد أسقطوه عني	==	وأختم من قبل طلبوا مني
	بأن نؤمهم فقلت لهم	==	يا سادتي افعلوا الذي أردتم
	لأني حين كتبت إليكم	==	قلت لمن يا إخواني أنتم
	أخرجتموني من عذاب الأسر	==	فلا أفارقكم سوى القبر [...]
	وهذه البلاد للكفار	==	فيها من أمة النبي المختار
	عدد كثير طيبون موحدون	==	وبشرايع الرسول يأخذون"، 106-105\63.

(23) مودن . عبد الرحيم، "أدبية الرحلة"، الدار البيضاء، 1996، 23-56. في هذه الصفحات ينتقد مودن تعامل التصور التقليدي للأدب مع النصوص الرحلية، ويحدد من جهته معايير تحقق الأدبية في هذه النصوص. وتتضمن رحلتنا أغلبها. وللإطلاع على آخر أهم التنظيرات، الفرنسية وأحدثها، في أدب الرحلة، يراجع الموقع الإلكتروني لمركز البحث في أدب الرحلات لجامعة السربون باريس الرابعة <http://www.crlv.org>، حيث يمكن الوقوف على مكتبته ووثائق مؤتمراته ومحاضراته ودروسه مكتوبة ومسموعة كذلك.

قواعد إنتاجه وتلقيه، لتسمح بذلك⁽²⁴⁾. وإن جاء هذا النص في شكل رسالة إخوانية أرسلها كاتبها من أتكونة إلى أخيه بأحواز فاس، فهو كذلك، وفي الأصل، حكاية سفر قصدي واضطراري في نفس الوقت⁽²⁵⁾. وبالرغم من كون صاحب هذه الحكاية قد اعتمد في صياغتها أسلوب التقرير الأقرب إلى الوصف من درجة الصفر، فالواقع أنه قد حقق أدبية رحلته عندما كتب بالزمان والمكان عن زمانها ومكانها، ليث فيها معاناته الكفيلة بشحذ منتظره بأقصى درجات الانفعال والتفاعل مع تجربة السفر⁽²⁶⁾. وبالإضافة إلى هذا وذاك، فرحالتنا يتخذ من هذه الحكاية دور ساردها، ويحتكر فيها شخصيتها المركزية الصانعة لأحداثها والمدبرة لمسارها. وذلك بوصفها نقلة في ذلك الزمان والمكان بالجسد والخيال والأليف والغريب، وذهاب من الذات إلى الغير، وعودة من الغير إلى الذات. وكل هذا متوافر في هذا النص، الذي لم يهمل فيه سارده وضعنا اتجاه مختلف الفضاءات الزمانية والمكانية التي تنقل بينها، مقارنا بين انتماءاته وانتماءات أسريه ومحريه الثقافية المتباينة والمتقابلة⁽²⁷⁾.

كيف يمكن إدراج نص هذه الرحلة ضمن الأدب المغربي والأدب الموريسكي في نفس الوقت؟ فإن كان غرضنا من وضع هذا السؤال تحقيق النسب الثقافي لهذا النص، وليس النسب الإثنوغرافي لصاحبه فحسب، فإننا لن نعدم مسوغات عديدة لهذا الإدراج. صحيح أن نصنا قد كتبه مغربي من أحواز فاس وأرسله إلى أخيه وإلى عائلته وأصدقائه ومعارفه من نفس الأحواز؛ الذين شكلوا في ذاتهم، المتلقي المخصوص

(24) ومن المعلوم أن هذا الشرط، هو أهم شرط لإدراج نص ما ضمن نصوص أدب الرحلة (حسب عبد الرحيم مودن).

(25) يحكي السارد كما علمنا أنه قد قصد برحلته مكة لأداء مراسم الحج. غير أنه وكما علمنا كذلك، قد اضطر إلى السفر أسيرا إلى جزيرتي هجينة وميورقة، ثم محمرا إلى أتكونة حيث سيقم بين المدجنين. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرحلة تحكي كذلك عن الوصول وعن العودة لتتضمن تبعا لذلك الثوابت البنائية لنص كل رحلة.

”قصدي إن فرقت هذه البلاد == لا بد لي بأن أسافر باجتهاد

إلى الحجاز أحج إن شاء الله == وبعد ذا أرجع إن قضى الله“، 63 / 107

”من هذه الأرض وباقى مهرها == إذا رجعت قد أهديه لها“، 65 / 110.

(26) تراجع النصوص المتقطعة من هذا النص الرحلي.

(27) بحيث كان يقرب كل انتقال له من فاس إلى تونس، إلى مثلين فميورقة فأتكونة بتاريخ تحقق ذلك. أما مقارنته المذكورة، فلقد استجابت إلى معاييره الدينية والأخلاقية التي تقابل الإسلام بالنصرانية والخير بالشر والحلم بالجور والظلم.

والمصرح به في ذات النص. لكنه صحيح كذلك بأنه قد أعده في كنف المدجنين وبينهم، كما قد تبين ذلك. فإذا علمنا، كما سبقت الإشارة إليه، أن مؤلفه قد شغل مكانة الفقيه بينهم ووظيفته، فما الذي يمنعنا من الافتراض كذلك، بل من التأكيد عليه، بأنهم قد شكلوا لديه أفقا آخر من أفاق انتظاره؟ ولعله هو الأهم⁽²⁸⁾. وإن لم يكن الأمر كذلك. فما الذي جعل الموريسكيين يحافظون على هذه القطعة من الأدب العربي والإسلامي للقرن الرابع عشر؟ وما الذي دفعهم إلى استنساخها، وإلى ترجمة محتوياتها ومضامينها إلى الإسبانية، بوصفها لغة أغلبيتهم الساحقة في القرن الميلادي السابع عشر، وهم على أبواب الخروج النهائي من أندلسهم؟

من المعروف أن الموريسكيين قد اعتمدوا، للحفاظ على هويتهم الإسلامية وذاكرتهم العربية، داخل مختلف التحولات الثقافية التي أخضعوا إليها؛ على إنتاج أدبيات متعددة ومختلفة، واستهلاكها باستمرار⁽²⁹⁾.

(28) يمتزج في أسلوب هذه الرسالة ومعجمها اللغوي وبنيتها التركيبية للسان الفصح واللسان الدارج المغربيين، لتندرج كذلك من هذه الناحية ضمن الأدب المغربي. لكنه من المعلوم أن اللغة ليست العامل الوحيد في تحديد أفق انتظار النصوص الأدبية، ولا ترقى أبدا إلى مستوى العامل الثقافي وسلطته في تحديد الأفق المعنى. والغالب على الظن عندنا في هذا المضمار، أن المدجنين قد استكتبوا رحلتنا هذا النص، لحاجتهم إليه كما سيأتي ذكره. ومما لا شك فيه، كذلك، أنهم كانوا قد استمعوا إليه يروي شفاهايا عليهم هذه الرحلة. فمعلوم أنه قد غلب التقليد الشفهي على التقليد الكتابي في إنتاج أدب المدجنين والموريسكيين واستهلاكه؛ فلقد كانوا يتحلقون حول راوية يروي أده. ويتضح هذا التقليد حتى في التثبيت الكتابي لهذا الأدب، في صياغته ولغته وأسلوبه. ولعل رحلتنا قد رام بنظم هذه الرحلة تيسير استماع المدجنين إليها وتكرارها وحفظها.

عن هذا التقليد بوصفه خاصية مميزة لهذا الأدب يراجع:

Galmés de Fuentes. Álvaro, "La literatura española aljamiado-morisca", *Grundriss der Romanischen Literaturen des Mittelalters*, Vol. IX, T.1, Fasc. 4, Heidelberg, 1985, 131.

(29) وهي في الغالب أدبيات دينية أو ذات طابع ديني، تتبوأ فيها المجادلة الدينية مكانة متميزة من حيث الكم. ويجمع على هذا التقويم جميع الدارسين الذين اعتمدوا بما. تراجع نشرة خوسي أنطونيو لاسراتي وتقديمه لديوان الموريسكي محمد رضان في أسماء الله الحسنى وفي مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم)، الذي جاء في سبعة عشر ألف بيت باللغة الإسبانية.

Lasarte López. Jose Antonio, *Poemas de Mohamad Rabadán. Cantos de Luna - Día del Juicio - Discurso de la Luz - Los Nombres de Dios*, Zaragoza, 1991.

كما عملوا ضمن هذا المضمار، على العودة الدؤوبة إلى أجزاء دالة من التراث الأدبي والديني العربي الإسلامي. ومن ذلك ما استنسخوه ومنه ما ترجموه أو أعادوا إنتاجه إلى الإسبانية، من السير النبوية والمجادلات الدينية وحكايات الفروسية العربية ومرويات المغازي الإسلامية وغيرها من قطع ذلك التراث الكفيلة بدغدغة تلك الهوية، وإنعاش هذه الذاكرة، وإذكاء الأمل في مقاومة كل أشكال القضاء المبرم عليها⁽³⁰⁾.

لذلك فإننا نرى أن محافظتهم على نص هذه الرحلة واستنساخه وترجمته واستنساخها هي الأخرى - علما بأن كل ترجمة هي خدمة لذات المترجم إليهم ولثقافتهم- يعبر عن استعارتهم لهذا النص، ثم عن تملكهم الثقافي له الذي سيسمح لهم بتحويله إلى إبداع من إبداعاتهم. ولا غرو في ذلك، فمما لا شك فيه من أنهم قد وجدوا في تجربة الأسر لبطله، وفي معاناته من جرائها، وفي تقلبه بين اليأس والأمل في استرجاع حريته أو سقوطه التام في العبودية، وفي إصراره على إذكاء رغبته في متابعة رحلته إلى الحج، وفي العودة كذلك إلى وطنه، ما يتيح لهم إمكانية التماهي معه، بالنظر إلى تماثل وضعيتهم من وجوه مع وضعية بطله السارد له⁽³¹⁾. فضلا عما يحفل به هذا النص من القيم الدينية والأخلاقية الإسلامية التي عضوا عليها

(30) تراجع فيما يتعلق بالسير النبوية، وبالمغازي، وبالفروسية التحقيقات والتخرجات والدراسات التالية:

López-Morillas. Consuelo, *Textos aljamiados sobre la vida de Mahoma: El profeta de los moriscos, edición y estudio*, C.S.I.C de Madrid, 1994.

García Arenal. Mercedes, *Los moriscos*, Madrid, 1975, 73-88

Galmés de Fuentes. Álvaro, *El libro de las batallas. Narraciones épico-caballerescas*, (ed.), Madrid, 1975.

(31) لقد كان الموريسكيون يحسون بأنهم أسرى لدى النصارى في وطنهم. لذلك استهوى بعضهم الحرب بدينه من إسبانيا، متحديا بذلك سلطتها الدينية والسياسية التي كانت تمنع ذلك. ويمكن أن تمثل على هذا الأمر بحروب أبي القاسم الحجري إلى المغرب، الذي وصفه بشكل مسهب في رحلته، التي ذهب فيها إلى أن طرد الموريسكيين من إسبانيا، فيه خير لهم؛ لأنه يمكنهم من الخروج بدينهم من هذه المملكة إلى البلاد الإسلامية.

الحجري. أحمد بن قاسم، "ناصر الدين على القوم الكافرين"، قام بتحقيقه والتقدم له وترجمته إلى الإنجليزية كل من قاسم السامرائي وشورد فان كوزنيتزفيلد وخيرارد فينجرز. المجلس الأعلى للأبحاث العلمية بمدريد، مدريد، 1997. أنظر أيضا الحجري، أحمد بن قاسم، ناصر الدين على القوم الكافرين. مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحياب لأحمد بن قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، تحقيق محمد رزوق، الدار البيضاء، 1987.

بالنواجد وما فرطوا فيها من شيء، بقدر ما وجدوا إلى ذلك من سبيل⁽³²⁾. ذهبنا إلى أن نص رحلتنا قد جعل من الأسر بؤرة موضوعه الأدبي والثقافي. وبالفعل، فجميع الأقسام الأربعة لهذا النص تحفل بأحداث أسر النصارى لكاتبه، ومعاناته من جراء ذلك، كما تحفل كذلك بوقائع تدبير المدجنين لفتيته وإقامته بينهم. وجميعها تجلي وتضمير في نفس الوقت معالم دالة من التاريخ الثقافي للأسر فيما بين ضفتي حوض البحر الأبيض المتوسط في المرحلة التاريخية المذكورة. ومنها، أنه وعلى الرغم من كون كل من المسلمين والنصارى المتنافسين على هذا الحوض، قد استشعروا، ولمدة طويلة، شراسة ظاهرة الأسر التي تظال حرمة أجساد ودماء وأموال وأعراض وأرواح ومعتقدات أنفسهم وأهلهم وذويهم، فإنهم قد أقروها معاً، ومارسوها جميعاً. ولا غرو في ذلك، فلقد شكل الأسر بالنسبة لهم جميعاً نتاجاً من نتاجات حروبهم المسترسلة بينهم، لا بل، مجالاً للاستثمارات الاقتصادية والمضاربات المالية. ألم يسخر كل منهم من جهته أموالاً لتجهيز السفن والخروج بها إلى البحر، والرسو بها على المراسي، لقطع الطريق واختطاف الأبرياء والمحاربين على السواء، من التجار والحجاج والمهاجرين لاسترقاقهم؟ والحق أن لا أحد منهم قد قصر في ذلك، إلى الحد الذي تم التداخل من غير انفكاك بين القرصنة والحرب المشروعة، ضمن التنافس الإسلامي النصراني المذكور، حيث أمسى الأسر فيه ظاهرة طبيعية جداً. ولعل ما كان يشغل المسلمين والنصارى ضمن هذا التنافس كذلك، هو العمل على تحرير أسراهم، وفك رقاب مملوكيهم من بعضهم بعضاً. ذلك هو ما جعل المسلمين والنصارى على السواء، يحملون سلطتهم السياسية وتنظيماتهم الدينية وجماعاتهم هذه المسؤولية، التي لم تتقاعس عن إنجازها أبداً، اللهم إن لم تجد إلى ذلك سبيلاً من السبيل⁽³³⁾. ولقد رأينا كيف حرر الأتراك العثمانيون من الأسر رفاق الراوي من تجار وحجاج، ثم كيف زحزحت طوق العبودية من على عنقه إحدى جماعات المدجنين بشرق الأندلس. وذلك هو ما كان يدفع ببعض الأسرى اليائسين من تدخل ملوكهم لفكهم، إلى الاعتماد على إمكانياتهم الخاصة، من أموالهم أو أموال ذويهم، أو من مكاتبتهم لأسيادهم النصارى⁽³⁴⁾. ولقد رأينا كيف حاول رحالتنا الأسير شراء نفسه من مولاه، بأموال يدفعها أخوه لوكيل هذا الأخير بمدينة فاس. وفي حالة اليأس التام من تلك الطريق أو هذه، لجأ بعض المسلمين إلى

Serry. Abdel Latif Mohammed, "La identidad arabo-islámica de los moriscos a través (32) de la literatura aljamiada", *Actes du V Symposium International d'Etudes Morisques du CEROMDI*, Zaguán, 1993, 695-709.

استدرار عطف النصارى عبر دغدغة مشاعرهم الإنسانية، لكي يتصدقوا عليهم بجريتهم⁽³⁵⁾. كما احتفى آخرون في استدرار دعاء المسلمين، وبركة علمائهم وكرامات أوليائهم، لتكسير قيود الأسر الملتفة عليهم، أو على ذويهم⁽³⁶⁾.

ومن بين ما يتجلى ويثوي كذلك في هذا النص مما يتعلق فيه بالأسر، هو موضوع أسر علماء المسلمين وفقهائهم واسترقاقهم في أوروبا. فلقد لقي رحالتنا الأسير في بداية أسره كل القسوة والعنت من طرف أسريه الذين لم يتهاونوا في شد وثاقه، وجلده، وإلقائه إلى اليم، ورشقه بالسهام، مخاطرين بحياته نفسها. أما عندما اطلع سيده على هويته، وعلم منه بأنه يشارك في علوم عصره، رفع عنه هذا الضرب من العذاب الجسدي، ليستبدله بنوع آخر أشد وطأة. والظاهر أن الرحالة كان قد أخفى هذه المشاركة ما استطاع عن أسريه، لكي لا يقع في هذه الورطة التي كادت أن تحكم طوق الرق حول رقبته إلى الأبد. ولا

(33) تدرج رحلات الغساني والغزالي والمكناسي المذكورة آنفا في هذا الإطار. وتراجع عن التنظيمات والتقاليد الإسلامية والنصرانية في فك الأسرى مقالة بيتر فان كونيكسفلد ومصادرها في هذا المضمار، س.ذ، 20-21. 30.

وبالنسبة إلى تحرير أسرى النصارى من المسلمين، يراجع: عبد النبي ذاکر، س.ذ، 147-185. وأنخل بونيس دي إيبرة.

Bunes de Ibarra, Miguel Ángel, *op.cit.*, 145-184.

(34) والمقصود بالمكاتبة كما هو معروف، أن الأسير يشتري رقبته بالمال الذي يجمعه من عمله أو من أموال الصدقات أو الزكوات أو غير ذلك. ورحالتنا يمثل نموذجا من نماذج هذه المكاتبة. كونيكسفلد، 21-30.

(35) جاء في مخطوطة "سبك المقال" لابن الطواح أن المتصوف الخرايبي لكي يفك أسر بعض أقاربه "كتب إلى قسيس تركونة ليفك أسرهم، ويزيل عنهم أسرهم: بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله الذي خلق البشر من نفس واحدة وبأبدانهم كلها من أديم الأرض الواحدة فجعلهم بالحقيقة ذوي رحم واحدة، لو تعارفوا حق المعرفة بما اشتركت فيه أبدانهم وانفردت بالنفس الواحدة نفوسهم وتحققت بروح الله أرواحهم، ما تقاطعوا ولا تسافكوا الدماء ولا توثبوا ثواب الأسد على العلاج...". مخ. رقم: 105، الخزانة الحسنية بالرباط. مأخوذ من مقالة فان كونيكسفلد، 22. 30.

(36) ساق كونيكسفلد نماذج من الكرامات المنسوبة إلى المحدث الأندلسي المشهور بقي بن مخلد الذي استطاع في الروايات الشعبية فل الحديد من حول كعبي الأسير، وإلى الشاطبي الذي صد "كتيبة من الفرسان المسيحيين الذين راموا القبض عليه"، مثلما استطاع كذلك في نفس الحكايات تغيير اتجاه الرياح لتتحطم سفينة نصرانية محملة بالأسرى المسلمين على اليابسة. أما الولي الأندلسي الششتري فلقد كان عندما ينادي على الأسير فإنه يرجع في اليوم الموالي إلى أهله. شأنه في ذلك شأن الولي ربحان الأسود السبتي. 22-23. 30.

عجب في ذلك، فلقد احتل الأسرى المسلمون من العلماء والفقهاء مكانة خاصة جدا في سوق النخاسة الأوروبية. فبقدر ما كانت أوروبا في حاجة إلى العلوم والآداب العربية الإسلامية، وإلى مدرسيها ونساج مخطوطاتها، بقدر ما كانت ترتفع الأسعار في هذه السوق؛ لتتخفف بذلك، وتتوارى إمكانيات تحرير هؤلاء الأسرى. لذلك رفع ضيف أسيرنا ثمنه إلى مائتي أوقية من ذهب المغرب بعياره الثقيل، لينهشه بأنياب العذاب النفسي في انتظاره وترقبه وتأرجحه بين اليأس من حريته وأمله في استرجاعها. إلى أن تداركته جماعة المدجنين الأتكونية التي افتدته بأموالها وبما جمعت من الصدقات من أجل ذلك.

وهي نفس الجماعة التي تلقت نصه، وأدرجته ضمن آدابها عبر استنساخه وتداوله، إلى أن تسلمته منها جماعات الموريسكين التي استخلفتها، والتي عملت بدورها على تداوله هذه المرة باستنساخه وترجمته إلى لغتها الجديدة؛ أي إلى الإسبانية القشتالية. وبذلك شكلت هذه الأخيرة أفقا آخر من آفاق انتظاره الجديدة؛ للمماثلة التي ضمنها لها بين حالة سارده وبين وضعيتها في إسبانيا. ألم يتخبط الموريسكيون، مثل صاحب هذا النص، بين اليأس والأمل داخل أسرهم الجماعي بإسبانيا لمدة طويلة؟ بلى، ولكن هذا موضوع آخر، نسأل الله النسيئة في العمر والقدرة للعودة إليه.